الحلقة العاشرة

يعقوب ينفى عن ولده بنيامين تهمة السرقة

ويتذكر يوسف .. وابيضت عيناه من الحزن

يلومونه على ذكر يوسف

يحثهم على البحث عن يوسف فى مصر

يوسف يكشف عن نفسه لأخوته

يعطيهم قميصه ليلقوه على وجه أبيه

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة العاشرة

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)﴾ .

أشعار الحلقة العاشرة

يعقوبُ يسمعُ من بنيه لقصةِ الخبرِ الحزين ١
أن ابنَه سرقَ الصَّواعَ ، فسيقَ مثلَ السَّارقين ٢
لكنَّه لم يرضَ منهُم ذلك القولَ المهين ٣
بل قالَ: أنتم تكذبونَ ولم تكُونوا صادقين ٤
أنتمْ تآمرتُم عليه ، وذاك فعلُ المجرمين ٥
من قبلِ هذا ضاعَ يوسفُ، كان وضَّاءَ الجَبين ٦
واحسْرتاهُ عليه ، إن الحزنَ فاضَ مع الحنين ٧
صبرٌ جميلٌ علَّ ربي، أن يردَّ الغائبين ٨
هو قادرٌ، هو عالمٌ، هو خالقٌ للعَالمين ٩
الشيخ أعرضَ عن بنيه، وقال من حزنٍ دَفين ١٠
إني لأشعرُ بالأسَى، وفُجِعْتُ في ثاني البنين ١١
الحزنُ في أعماقه قد فاقَ وصفَ الواصفين ١٢
وسوادُ عينيه اختفَى، إذ لا يَرى كالمبصرين ١٣
قد صارَ أعمَى لا يكفُّ عن البكاءِ ولا الأنين ١٤
أبناؤه قالوا: فصبراً ، لا تكنْ في الجازعين ١٥
تاللهِ إنك في عداد الأنبياء المرسَلين ١٦
هل لا تزالُ لاسمِ يوسفَ ذاكراً لا تستكين ؟! ١٧
فلتنسَ هذا يا أبانا ، بعدَ عشراتِ السنين ١٨
فلتنسَهُ، أو سوفَ تغدُو في عداد الهَالكين ١٩
الشيخُ قال لهُم: فكفُّوا، لا تكونوا لائمين ٢٠
للهِ أشكُو ما ألاقي من همومِ الغَائبين ٢١
فلتسمعُونِي يابَنيَّ ، فلا تكونوا جَاهلين ٢٢
إني علَى علمٍ يفوقُ علومكُم متجَمِّعين ٢٣
لكنني لازلتُ أوصيكم، فكونوا سامعين ٢٤

تلك الوصيةُ أن تعودُوا نحوَ مصرَ مبادرين ٢٥
وهناكَ في مصرَ العزيزةِ فلتكُونوا باحثين ٢٦
فلتبحثُوا في مصرَ بحثَ الصادقين المخلصين ٢٧
فلتبحثُوا عن يوسف وأخيه بحث الصادقين ٢٨
لازالَ يوسف ملءَ قلبي، لم يمتْ هذا يقين ٢٩
لا ينبغي أن تيأسُوا من رَوْح ربِّ العَالمين ٣٠
اليأسُ كُفْرٌ لا تكُونوا في عِداد الكافرين ٣١
ولتجعَلوا الآمالَ ملءَ قلوبِكُم كالمؤمنين ٣٢
فلتذهبُوا تلقاءَ مصرٍ موطنِ المتحضِّرين ٣٣
أرضِ الحضارةِ والسيادةِ منذُ آلاف السنين ٣٤
الشرقُ يرنُو نحوَها، كالطفلِ للصدرِ الحَنُون ٣٥
دخَلوا على الصِّدِّيقِ بعد وصُولِهم متردِّدين ٣٦
قالُوا له: فاسمعْ مقالتَنا سماعَ الموقنين ٣٧
قد مسَّنا ضُرٌّ ومسَّ الأهلَ، لسنَا كاذبين ٣٨
وبضاعةٌ جئنا بها من أرضنا كالجَالبين ٣٩
لكنْ لأجلِ الكيلِ جئْنَا، لم نجئْ متطفِّلين ٤٠
إنا سنعطى نقدَ ما نكتالُه كالآخَرين ٤١
فلتُوفنا كيلاً، وأحسنْ شيمةَ المتصَدقين ٤٢
إن الجزاءَ من الإله، وسوفَ يجزى المحسنين ٤٣
لكنَّ يوسفَ كان في أعماقه شيءٌ دفين ٤٤
ينوِى مواجهةً لإخوته، بأسلوبٍ مُبين ٤٥
كي يجمعَ الشملَ الشتيتَ بُعَيْدَ تفريقٍ مهين ٤٦
من ثَم بادرهُم فقالَ لهم مقالَ المستبين ٤٧
هل تذكرونَ بأنكُم قارفتُمُ الفعلَ المشين؟! ٤٨
مع يوسفٍ وأخيه إذ كنتُم بحقٍّ جاهلين ٤٩
سمعُوا مقالتَه فصاروا دون شكٍّ ذاهلين ٥٠
نظروا إليه، فبادَروه جميعُهم متسائلين ٥١

هل أنت يوسفُ؟! فلتُجبْ بالصدقِ والقولِ الأمين٥٢
تاللهِ قد كنا نشكُّ، ولم نكنْ متيقنين ٥٣
فأجابهُم، أنا يوسفٌ من آلِ بيتِ المرسَلين ٥٤
هذا أخي أيضاً، لقد تمَّ اللقاءُ على اليقين ٥٥
للهِ منَّ على الشتاتِ فجمَّع المتفرقين ٥٦
مَنْ كانَ ذا صبرٍ وتقوى فهْو بين الفائزين ٥٧
وجزاؤه عند الإله، يكونُ أجرَ المحسنين ٥٨
إخوانُ يوسفَ مسَّهُم شيءٌ من الحزنِ المهين ٥٩
لكنهُم قد بادَروه بلهجةِ المتندمين ٦٠
قالوا: لقد فُضِّلْتَ حقاً من إلهِ العالمين ٦١
ها نحنُ بؤْنا بالندامة، في عِداد الخاطئين ٦٢
لكنَّ يوسفَ لم يدعْ إخوانَه متحيِّرين ٦٣
بل قال فوراً: قد عفوت فلا تكونوا آسفين ٦٤
إني على هذا قديرٌ، لا أحبُّ الناقمين ! ٦٥
اللهُ يغفرُ كل ذنبٍ ، من ذنوبِ التَّائبين ٦٦
ذاكُم إلهُ العرشِ ، رحمَانٌ وخيرُ الراحمين ٦٧
هاكُم قميصي فاذهبوا للآلِ فوراً مسْرعين ٦٨
ولتطرحُوه على أبي، يصبحْ بصيراً عن يقين ٦٩
هاتوا جميعَ الأهلِ ، ولتأتوا إلينَا قادمين ٧٠
حتى يعودَ الشملُ حقاً، بعد عشراتِ السنين ٧١

يعقوب لم يصدق ما قالوه عن بنيامين

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾

يعقوبُ يسمعُ من بنيه لقصة الخبرِ الحزين ١
أن ابنَه سرقَ الصَّواعَ ، فسيقَ مثلَ السَّارقين ٢
لكنَّه لم يرضَ منهُم ذلك القولَ المهين ٣
بل قالَ: أنتم تكذبونَ ولم تكُونوا صادقين ٤
أنتمْ تآمرتُم عليهِ ، وذاك فعلُ المجرمين ٥

لقد استمع يعقوب عليه السلام، من بنيه أسوأ خبر. لقد كان وقع هذا الخبر على قلب يعقوب كوقع الصاعقة، ولم لا؟! إنها فاجعة جديدة وأحزان وآلام، إن بنيامين يعتبر أحب أبناء يعقوب إليه، بعد غياب يوسف، يوسف الذى لم تنسه الأيام، ولا طول الأعوام ذكره. ولا غرو فالفاجعة الجديدة التى أصابت يعقوب عليه السلام، فى ولده بنيامين، لم تكن فى تخلفه فى مصر فحسب، بل فى كونها مرتبطة بجريمة قذرة. هى جريمة السرقة التى ألصقت به بتدبير محكم. !! يالله!! أيسرق بنيامين؟! هذا أمر لم يكن فينا آل البيت مطلقاً. لا ولن يكون فينا أيضا مستقبلاً. لماذا يحدث هذا؟! هل انقلبت موازين الفضيلة فينا آل البيت؟! أيكون الأمين خائنا؟! أيكون التقى فاسقاً؟! لا، لا يمكن أن يحدث هذا، إن ابنى بنيامين، لم يسرق، ولن يكون سارقاً يوما ما. ولا أشك فى أنكم تكذبون عليه. إن هذا الذى ذكرتموه، ما هو إلا شىء من نضح نفوسكم المريضة.

- قال ابن كثير فى تفسيره: « قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب، وأخبروه بما جرى، اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف قال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ».

وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، سحب حكم الأول عليه. . وصح قوله: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

- قال الشيخ الصابونى فى « صفوة التفاسير » : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أى زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً. وميكدة فنفذتموها، اتهمهم بالتآمر على « بنيامين » كما سبق فى أمر يوسف.

يعقوب يواسى نفسه بالصبر

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾

من قبلِ هذا ضاعَ يوسفُ، كان وضَّاءَ الجَبين ٦
واحسْرتاهُ عليه، إن الحزنَ فاضَ مع الحنين ٧
صبرٌ جميلٌ عَلَّ ربى، أن يردَّ الغائبين ٨
هو قادرٌ، هو عالمٌ، هو خالقٌ للعَالمين ٩

يواصل نبى الله يعقوب عليه السلام، حديثه إلى بنيه، فبعد أن نفى عن ولده بنيامين تلك الفرية القذرة ـ جريمة السرقة ـ لم يخنه حلمه، بل لم يقترب اليأس من نفسه، برغم شدة حزنه، من ثم هتف قائلاً: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. وهذا دليل على أن يعقوب عليه السلام، برغم مرور عشرات الأعوام، على غياب ولده يوسف عنه، فإنه لم يفقد الأمل فى وجوده، وأنه لا يزال يأمل فى اللقاء به. وهكذا يكون حال المؤمنين حينما تدهمهم المصائب دائما. فإنهم يتجملون بالصبر، يتسلون به عن مصابهم. ولا غرو فالصبر نصف الإيمان. والمؤمنون أشد بلوى. ولقد سئل محمد ﷺ، أى الناس أشد بلوى ؟! قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه، ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على وجه الأرض ما عليه من خطيئة. رواه ابن حبان فى صحيحه.

قال ابن كثير فى تفسيره: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾. ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، وروبيل الذى أقام بديار مصر، ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية. ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أى العليم بحالى ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أفعاله وقضائه وقدره.

وفى القصص القرآنى قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب: « ثم لا يجد يعقوب إلا الصبر على هذا المكروه، والاستسلام لأمر الله، والرجاء فى رحمته وإحسانه، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ذلك ظنه بربه، ورجاؤه فى فضله وإحسانه، وإذن فهو صابر لحكم الله، مترقب لما وراء هذا الصبر من فرج، إذ لابد من وراء الصبر الجميل من جزاء طيب، وبشريات مسعدة».

لقد ابيضت عينا يعقوب

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

الشيخ أعرضَ عن بنيه، وقال من حزنٍ دَفين ١٠
إنى لأشعرُ بالأسَى، وفُجِعْتُ فى ثانى البنين ١١
الحزنُ فى أعماقه قد فاقَ وصفَ الواصفين ١٢
وسوادُ عينيه اختفَى، إذ لا يَرى كالمبصرين ١٣
قد صارَ أعمَى لا يكفُّ عن البكاءِ ولا الأنين ١٤

لقد هاجت الآلام بنبى الله يعقوب عليه السلام، وكان يتحدث إلى بنيه، ينفى عن ولده بنيامين تهمة السرقة التى ألصقت به، ثم أخذ بها كما يؤخذ المجرمون. وبينما هو يتحدث إليهم، إذ به يشعر بضعف قد اعتراه، من هول ما قد أصابه، من شدة وقع الخبر على نفسه. فيعرض عنهم فيوليهم ظهره، لماذا؟! لعله يخفى دموعاً قد انهمرت فجأة، فلم يشأ أن يراه أبناؤه ضعيفاً. منهاراً، وكأنى به يريد أن يخفى ما يعتمل فى أعماقه. ولا غرو فالآلام فى أعماقه كانت هادئة نوعاً ما من حزنه على يوسف، فجاءت أخبار بنيامين، فأججت النار بعد خمودها، لقد كان بنيامين هو سلوة أبيه، بعد غياب يوسف. والآن لقد غاب الثانى، فمن ثم كانت الفاجعة فوق احتمال الشيخ، الذى أنهكته الأحزان، فلم يتمالك أن هتف قائلاً: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾. وحينئذ شعر كأن سحابة حجبت رؤية عينيه، فهو لا يكاد يبصر ما حوله إلا قليلاً، «وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم».

- قال ابن كثير فى تفسيره: «﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أى أعرض عن بنيه وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول، جدد له حزن الابنين، الحزن الدفين قال عبدالرازق، عن سعيد بن جبير إنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة، الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى ساكت لا يبدى ولا يشكو أمره إلى مخلوق».

- قال الأستاذ أحمد بهجت فى «أنبياء الله»: انكفأ يعقوب عائداً إلى غرفته، لم يكد يستدير ويمضى حتى خرجت من قلبه مرتعشة، ترتجف بالحب، وامتلأت عيناه بالدموع كبيرة، راحت تزيد حزنه اشتعالاً، بدلاً من تسكينه وإطفائه. وذلك بعد أن تولى عن أبنائه وقال: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أسلمه البكاء الطويل إلى فقد بصره، أو ما يشبه فقد بصره.

أهناك من يقول: كان نبياً ويبكى هذا البكاء؟! أليس البكاء لونا من ألوان اليأس؟! ونقول رداً على هذا: إن الأنبياء هم أعظم الناس إحساساً بالمشاعر، وأعمقهم تأثراً، وأشدهم استجابة للمؤثرات. . والبكاء درجة من درجات الحب ولون من ألوان الشكوى إلى الله.

أبناء يعقوب يلومونه

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥)﴾

أبناؤه قالوا: فصبراً ، لا تكنْ في الجازعين ١٥
تاللهِ إنك في عداد الأنبياء المرسَلين ١٦
هل لا تزالُ لاسمِ يوسفَ ذاكراً لا تستكين ؟! ١٧
فلتنسَ هذا يا أبانا ، بعدَ عشرات السنين ١٨
فلتنسَهُ، أو سوفَ تغدُو في عداد الهَالكين ١٩

يعقوب عليه السلام، يتحدث إلى بنيه حديثاً فيه مرارة ، وفيه ألم، وذلك من واقع ما يشعر به من أحزان ملأت قلبه، وتأثرت بها نفسه. فقال قولته التى سجلها القرآن الكريم وحياً يتلى على سمع الدنيا كلها: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. هنالك فقط شعر أبناء يعقوب، بما يعانيه أبوهم من مرارة وآلام، فقالوا له: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾. يا أبانا ! ألا تزال تذكر يوسف ، حتى بعد عشرات السنين؟! إنهم يقولون له هذا القول، بأسلوب فيه نغمة التأنيب واللوم، كأنهم يريدون أن يقولوا له: ألا يكفيك يا أبانا، هانحن عشرة أمامك. ألا ترى فينا سلوة لك عن يوسف؟! لقد انتهى يوسف. لقد ذهب يوسف ولن يعود، فحاول أن تنساه، وما عليك إلا أن تترحم على روحه. وإن لم تكف عن هذا، فإننا نخشى أن يكون ذلك سبباً فى إهلاكك.

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى » : « إن أبناء الشيخ الجليل، ليغارون من يوسف حتى بعد أن ألقوا به فى غيابات الجب، ويستكثرون على أبيهم أن يحزن هذا الحزن الذى لا نهاية له. إن ذلك لدليل على هذا الحب العميق الذى كان ليوسف ، فى قلب أبيهم، وأنه لا يزال مشغولاً عنهم بالحزن عليه، بعد فقده، كما كان مشغولاً عنهم بالحب كله له وهو حى.

فهم يلقون أباهم منكرين عليه هذا الحزن أن يظل ملازما له، حتى يتلف كيانه، ويتهدم بنيانه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ والحرض الشىء الذى استحالت طبيعته ، وتغيرت معالمه، كالنبات يتحول إلى حطب، وكالثوب الجديد يصير بالياً. وأنك لا تنقطع عن هذا الحزن حتى تذبل وتجف وتموت ».

قال الشيخ الصابونى فى « صفوة التفاسير » فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أى لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف ، وتتفجع عليه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أى حتى تكون مريضاً، مشرفاً على الهلاك، أو تهلك حسرة وأسى وتموت.

يعقوب يشكو آلامه إلى مولاه

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾

الشيخُ قال لهُم: فكفُّوا، لا تكونوا لائمين ٢٠
للهِ أشكُو ما ألاقي من همومِ الغائبين ٢١
فلتسمعُونى يابَنِيَّ، فلا تكونوا جَاهلين ٢٢
إنى علَى علمٍ يفوقُ علومكُم متجمِّعين ٢٣

لا يزال الحوار مستمراً، بين نبى الله يعقوب عليه السلام، وبين أبنائه.. ولا غرو فيعقوب يتحدث مع بنيه، والآلام فى أعماقه تشبه النار المتأججة.. أما أبناؤه فلم يعجبهم من أبيهم، انطواؤه واستغراقه فى الأحزان، لا سيما ترديده لاسم يوسف، فذلك يثيرهم، ويذكرهم بجريمتهم.. من ثم قالوا له: ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ... ﴾ الخ. يبد أنه رداً على لومهم وتأنيبهم قال: ﴿.. إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. أى إننى لا أشكو لكم ما أعانيه من آلام وأحزان، ذلك لكونكم تجهلون مشاعر وأحاسيس الأبوة الصادقة.. ولكننى ألجأ إلى الله العظيم، العالم بحالى، والذى يستطيع أن يخفف آلامى وأحزانى.. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ إننى - والحمد لله - آتانى الله علماً منه، لم تعملوه وأما الأحزان التى مست أعماق نفسى، فهى ليست جزعاً أو اعتراضاً على قضاء الله.. لا، بل هى نوع من الخضوع، وإظهار الضعف للخالق العظيم، لأداء حق العبودية بالضراعة الصادقة له سبحانه وتعالى. إننى أتوجه إليه بالشكوى، لا لأشرح وأفسر له ما أنا فيه.. لا، فهو سبحانه وتعالى، يعلم السر وأخفى.

- قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب فى « القصص القرآنى»: «وكان رد أبيهم عليهم: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى إنما أتوجه بأنينى وحزنى إلى الله.. والبث: إذاعة الحزن، والإعلان عنه بلفظ أو أنين.. والحزن: الألم الذى يكتمه صاحبه، ولا يصرح عنه بقول أو حركة. فيعقوب يشكو ما به إلى الله فى سر وفى جهر، وهو يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه ومن علمه أن هذه الضراعة إلى الله، والشكاية إليه: هى عبادة خالصة، وولاء صادق لله رب العالمين. إنه يشكو إلى سيده ومالكه، ومن بيده الأمر كله، وليست هذه الشكوى إعلاماً لله بحالى الشاكى.. فالله سبحانه يعلم كل شىء علماً أزلياً: ما وقع وما سيقع، وإنما هذه الدعوات والابتهالات، هى عبادة لله بما يستولى على العبد منها من مشاعر الحاجة، والعوز إلى الله».

يعقوب يحث أولاده للبحث عن يوسف

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾

لكننى لازلتُ أوصيكم، فكونوا سامعين ٢٤
تلك الوصيةُ أن تعودُوا نحوَ مصرَ مبادرين ٢٥
وهناكَ فى مصرَ العزيزةِ فلتكُونوا باحثين ٢٦
فلتبحثُوا فى مصرَ بحثَ الصادقين المخلصين ٢٧
فلتبحثُوا عن يوسف وأخيه بحث الصادقين ٢٨
لازالَ يوسف ملءَ قلبى، لم يمتْ هذا يقين ٢٩

أبناء يعقوب، قصرت أفهامهم عن إدراك وفهم مشاعر أبيهم ، فمن ثم عبر عن ذلك بقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ....﴾ إلخ . أى أنتم أقل وأجهل من أن أشكو لكم حقيقة ما أعانيه، وإنما أشكو إلى الذى يعلم سرى يعلم وعلانيتى. إلى عز وجل. ويواصل نبى الله يعقوب، حديثه إلى بنيه فيقول: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾. الأمل لا يزال يراود خيال يعقوب، ويملأ قلبه، ويضىء أعماقه. إنه لم ييأس، وإن أحاسيسه لتقول له: إن يوسف لا يزال حياً يرزق. وانطلاقاً من هذا المعنى أوصاهم فقال: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾. اذهبوا إلى مصر هنالك.. ابحثوا بحثاً صادقاً، فتشوا فى شوارعها ، فى أزقتها ، فى كل مكان اسألوا عن يوسف ، وسوف تجدونه فى مصر. وبإذن الله سوف تعودون إلينا جميعا ومعكم يوسف وبنيامين وروبيل. إن يوسف لا تزال صورته ماثلة فى خيالى، كأنى أراه أمام عيناى. لم يغب عنى مطلقاً.

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرفوا منهما، وتفحصوا من حالهما. والتحسس: طلب الإحساس.

قال ابن كثير فى تفسيره: « يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام، أنه ندب بنيه على الذهاب فى الأرض ، يستعملون أخبار يوسف وأخيه بنيامين . . والتحسس يكون فى الخير. . والتجسس يستعمل فى الشر».

قال القرطبى فى: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ هذا يدل على أنه تيقن حياته؛إما بالرؤيا،وإما بإنطاق الله تعالى الذئب ،كما فى أول القصة،وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه؛وهو أظهر ،والتحسس:طلب الشىء بالحواس. .أى اذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم،واحتال عليكم فى أخذه،فاسألوا عنه وعن مذهبه. .ويروى أن ملك الموت قال له:اطلبه من ها هنا ،وأشار إلى ناحية مصر. .وقيل :إن يعقوب تنبه على يوسف برد البضاعة،واحتباس أخيه، وإظهار الكرامة؛فلذلك وجههم إلى جهة مصر دون غيرها » .

وينهاهم عن اليأس

﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾

لا ينبغي أن تيأسُوا من رَوْح ربِّ العَالمين ٣٠
اليأسُ كُفْرٌ لا تكُونوا في عداد الكافرين ٣١
ولتجعَلوا الآمالَ ملءَ قلوبِكُم كالمؤمنين ٣٢

لا يزال نبى الله يعقوب عليه السلام ، يتحدث إلى بنيه . وفى الوقت نفسه لا يريد أن يقسو عليهم، فى اللوم والتقريع، لضياع يوسف، فى المرة الأولى، والتهاون فى شأن بنيامين، فى المرة الثانية. ذلك لأنهم بلاشك بنوه، وبالتالى هم عدته وسلاحه فى الحياة، فليس له حول ولا قوة إلا بالله ثم بهم، يأمرهم فيطيعونه، ويشير عليهم برأيه ، فينفذون ما يشير به، وما سوى ذلك فهو يهرع إلى الله عزوجل ضارعاً بدعائه، أن يحقق له مطالبه. لذلك، خاطبهم بقوله: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ إن كلمة ـ يابنى ـ فيها ود وملاطفة منه لبنيه، بعد أن احتدم الحوار بينه وبينهم ، ثم يردف قائلاً: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ يبث فيهم روح الأمل، ويناشد فيهم وازع الإيمان ، يذكرهم بالله عز وجل. لا غرو ، فهم بلاشك ذاهبون إلى مصر ، وذلك اضطراراً وليس سياحة ولا ترفاً، وذلك لسببين اثنين:

١ـ لأن اثنين من أبناء يعقوب فى مصر . . هما: بنيامين أصغرهم، وروبيل أكبرهم، هذا إذا استثنينا يوسف.

٢ـ طلب الميرة ، فهم فى حاجة إلى الطعام ، من ثم فالذهاب إلى مصر أمر حتمى لا مناص منه قال الفخر الرازى فى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ قال الأصمعى: الروح، ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه، وتركيب الراء والواو والحاء، يفيد الحركة والاهتزاز، فكل ما يهتز الإنسان له، ويلتذ بوجوده فهو روح.

وقال ابن عباس : ﴿لَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ ، يريد : من رحمة الله، وعن قتادة: من فضل الله، وقال ابن زيد: من فرج الله، وقرأ الحسن وقتادة: ﴿ مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ أى من رحمته، وهذه الألفاظ متقاربة، ثم قال: «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» قال ابن عباس: إن المؤمن من الله على خير، يرجوه فى البلاء، ويحمده فى الرخاء. واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى، لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال ، أو غيرعالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم بل هو بخيل ، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر. فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر. ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً، والله أعلم.

يتوسلون ليوسف

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ... ﴾

فلتذهبُوا تلقاءَ مصرٍ موطنِ المتحضِّرين ٣٣
أرضِ الحضارةِ والسيادةِ منذُ آلافِ السنين ٣٤
الشرقُ يرنُو نحوَها، كالطفلِ للصدرِ الحَنُون ٣٥
دخَلوا على الصِّديقِ بعد وصُولِهم متَرَدِّدين ٣٦
قالُوا له: فاسمعْ مقالَتَنا سماعَ الموقِنين ٣٧
قد مسَّنا ضُرٌّ ومسَّ الأهلَ، لسنَا كاذِبين ٣٨

لقد رحل أبناء يعقوب، متوجهين إلى مصر، كى يبحثوا عن يوسف وأخيه، كما أمرهم أبوهم، وما كان لهم أن يرفضوا أمره، ذلك لأن أباهم لا يزال يذكر يوسف، وبالتالى لم يقتنع ببراءتهم من ضياع يوسف، فى المرة الأولى، ويتهمهم بالتهاون فى شأن بنيامين، فى المرة الثانية، من ثم فهم يحاولون أرضاءه، بتنفيذ ما يشير به أو يأمر. القافلة تواصل مسيرتها إلى مصر، للمرة الثالثة ذهاباً وإياباً، بين مصر والشام، ولا غرو فالمسافة طويلة، والمسيرة شاقة مضنية عسيرة، لقد جهد أبناء يعقوب من كثرة الأسفار: حلاً وترحالاً. إن أبناء يعقوب يشعرون فى أعماقهم بوخز الضمير، وهم فى الوقت نفسه يعتقدون أن ما عانوه من عنت وجهد فى أسفارهم، إنما هو كفارة لما فعلوه بيوسف، إذاً فالذنب لا ينفك يئج فى أعماقهم، كالنار تكوى قلوبهم، وتقض مضاجعهم. وصلوا أرض مصر. مصر الحضارة والمدنية والعلم، ولا غرو فمصر تاج الشرق، والشرق بغير مصر، قليل، بل صغير. يشبه الطفل محتاج للأم، ومصر هى الأم.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ... ﴾. إنهم يذكرون ليوسف حقيقة حالهم، وسوء ما انتهى بهم الأمر: مادياً ومعنوياً، وجسدياً، فهم من حيث المادة، قد استنفذوا ما بأيديهم، فى رحلاتهم الثلاث بين مصر والشام، وشراء الطعام، ومن حيث المعنى، فنفوسهم متعبة عما أصابهم بشأن أخيهم بنيامين، ومن حيث الجسد، فرحلات ثلاث ذهاباً وإياباً، بين مصر والشام، أنهكت قواهم، قالوا له: أيها العزيز.. نحن قوم لازمنا سوء الطالع، فى روحاتنا وغدواتنا، وأصابنا وأهلنا الضر ـ الجوع وسوء الحال، وكثرة العيال، وقلة الطعام.. وقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يعنون أهلهم من خلفهم، أى تركناهم فى حالة يرثى لها. الواقع أن أبناء يعقوب، فى حالة يرثى لها من ناحيتين اثنتين:

الأولى: تركهم أباهم فى حالة حزن شديد، بسبب ما حدث لولده بنيامين. الذى أثار ما كان كامنا فى أعماق الشيخ من أحزان.

الأخيرة: عدم رضائهم عن أنفسهم فى أعماقهم، ولا غرو فالإنسان إذا لم يكن راضياً عن نفسه، فإنه يكون مهزوماً من داخلة لعدم ثقته بنفسه. لذا كان حديثهم مع يوسف من هذا المنطلق: ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّر ... ﴾.

ويعتذرون إليه أيضاً

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾

وبضاعةٌ جئنا بها من أرضنا ... كالجَالبين ٣٩
لكنْ لأجلِ الكيلِ جئنا، لم نجئْ ... متطفِّلين ٤٠
إنا سنعطى نقدَ ما نكتالُه ... كالآخَرين ٤١
فلتُوفنا كيلاً، وأحسنْ شيمةَ ... المتصدقين ٤٢
إن الجزاءَ من الإله، وسوفَ يجزى ... المحسنين ٤٣

لا يزال أبناء يعقوب ، يتحدثون إلى يوسف الصديق ، حديثاً فيه توسل واستعطاف، وإنهم لصادقون. . فقد أجهدهم كثرة الأسفار، فضلاً عن نفاذ ما لديهم من مال. لقد جبلوا بضاعة معهم، ثمنا لما يحتاجونه من الطعام . يبد أنهم يعتذرون ليوسف ، من أن البضاعة التى جاءوا بها ، من النوع الذى قد لا يفى بثمن الطعام المطلوب. . لذلك فهم يقولون: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى رديئة، وذلك أقصى ما استطعنا إحضاره، نظراً لفقرنا، وقلة ذات اليد. وفى الوقت نفسه يطلبون منه، أن يعطيهم من الطعام فى هذه المرة، كما أعطاهم فى المرتين السابقتين، فقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ لا تنقصه، ثم يردفون قائلين: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يبدو أنهم يقصدون بقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أى رد أخانا إلينا ، فإن فعلت ذلك، تكون قد تصدقت علينا، وأحسنت إلينا. . والله سبحانه وتعالى يعطى المحسنين أحسن الجزاء. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة، يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً، قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة، لا تقبل فى ثمن الطعام، أظهروا له الذل والانكسار، استرحاماً واستعطافاً ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أى أتم لنا الكيل، ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أى برد أخينا إلينا ، أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أى يثيب المحسنين أحسن الجزاء [1]. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره، وهو ثمن قليل، قال مجاهد وغيره: وقال ابن عباس: الرديء الذى لا ينفق ، مثل خلق الغرارة ، والحبل والشيء، وفى رواية عنه: الدرهم الرديئة التى لا تجوز إلا بنقصان، وقال سعيد بن جبير: هى الدراهم الفول، وهو الرديء من كل شيء، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أى أعطنا بهذا الثمن القليل، ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: فأوقر ركابنا وتصدق علينا، وقال ابن جريج: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ برد أخينا إلينا» تفسير ابن كثير.

(١) مع أعلام المفسرين للشيخ الصابونى.

يوسف يذكر إخوته بما فعلوه معه

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾

لكنَّ يوسفَ كان في أعماقه شيءٌ دفين ٤٤
ينوي مواجهةً لإخوته، بأسلوبٍ مُبين ٤٥
كي يجمعَ الشملَ الشتيتَ بُعَيْدَ تفريقٍ مهين ٤٦
من ثَم بادرهُم فقالَ لهم مقالَ المستبين ٤٧
هل تذكرونَ بأنكُم قارفتُمُ الفعلَ المشين؟! ٤٨
مع يوسفٍ وأخيهِ إذ كنتُم بحقٍّ جاهلين ٤٩

لقد استمع يوسف الصديق، حديث إخوته الممزوج بالضعف والانكسار. إن إخوته يتحدثون إليه عن البضاعة المزجاة، وعن أخيهم الذى أخذه فأبقاه عنده بالجريمة التى نسبت إليه، ولا يدرون أن هذا الذى يستعطفونه، ويتوسلون إليه، هو أخوهم يوسف، وأن فى أعماقه شيء مدفون، يريد أن يخرجه إلى الواقع. يريد أن يفاجئ إخوته بحقيقة شخصه.. فهم يتوسلون إليه فى ضعف وذلة، وهو يتمزق فى داخله ويتألم، لا يريد لإخوته أن يكونوا فى هذا الموقف الذليل. إنهم لم يعرفوه طوال هذه المدة، برغم أنه اختلط بهم، وتحدث إليهم أكثر من مرة، خلال الرحلتين السابقين، إنه يريد أن ينقذهم من هذا الموقف الذى هم فيه، يريد أن يدخل الفرحة على قلوبهم، يريد أن يقول لهم: لا تتذللوا هكذا! فأنا صاحب الكلمة فى هذا الخير كله، وأنا أخوكم، ابن أبيكم.. يبد أنه يفكر فى كيفية إلقاء هذا الخبر على أسماعهم، إنه يخشى أن يكون لهذا الخبر، وقع سيء عليهم. إذن فلابد أن يمهد لحديثه، ليوقظ أسماعهم ووعيهم، لما سوف يلقى عليهم من أخبار مفاجئة.. فقال: ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** ؟ !﴾ يالله! ! ما هذا الذى يسمعونه من عزيز مصر، ذى الجاه والسلطان.. هل تذكرون أخاكم يوسف؟! وماذا فعلتم معه أيام طيشكم وشبابكم، فذلك كان منكم جهلاً.

قال صاحب القصص القرآنى: «ويثير هذا التساؤل، تساؤلات كثيرة، كانوا يرونها بينهم وبين أنفسهم، ثم فيما كان بينهم وبين يوسف من قبل، حتى لقد كادوا يسألونه: من أنت؟! وما لك تشغل نفسك بنا وبأبينا وأخينا؟! ولم تختصنا بالحديث إليك؟! ولم تحملنا على أن نأتيك بأخينا من أبينا؟! ثم ها أنت تحتجزه عندك؟!، هذه الأسئلة وكثير غيرها، كانت تدور بين القوم، ويتناجون بها، فى حلهم وترحالهم، ثم لا يجدون الجواب عليها، حتى جاءهم الخبر اليقين فيها، فإنه ما كان يوسف يسألهم هذا السؤال: ﴿**هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ**...﴾ إلخ. حتى يطل عليهم الجواب الذى كان تائها فى رؤسهم، منذ أمد بعيد».

إخوته..يتعرفون عليه حين سألهم

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي... ﴾

سمعُوا مقالتَه فصاروا دون شكّ ذاهلين ٥٠
نظروا إليه، فبادَروه جميعُهم متسائلين ٥١
هل أنت يوسفُ؟! فلتُجبْ بالصدق والقول الأمين ٥٢
تاللهِ قد كنا نشكُّ، ولم نكنْ متيقنين ٥٣
فأجابهُم، أنا يوسفٌ من آلِ بيتِ المرسَلين ٥٤
هذا أخى أيضاً، لقد تمَّ اللقاءُ على اليقين ٥٥

يالله!! ما الذى أدرى عزيز مصر، بيوسف وأخيه؟! هذا سؤال تبادر إلى أذهان أبناء يعقوب، حينما قال لهم يوسف: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ...﴾ كل منهم قال لنفسه: إذن، هو هو.. إنه يوسف لا شك فى ذلك. لقد كانوا يشعرون قبل ذلك، بأن العزيز قد ترخص فاندمج معهم، واختلط بهم أكثر من غيرهم، فهم ليسوا إلا طلاب ميرة، شأنهم شأن كثيرين غيرهم، من الوفود القادمين من كل الأصقاع.. !وكانوا يشعرون أنه أولادهم عناية خاصة.. فلماذا؟! وكانوا أيضا يشعرون نحوه بميل لا إرادى، لا يدرون له تفسيراً.

فلما فاجأهم بقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ...﴾ . نظروا إليه فوراً نظرة جديدة، فكأنهم كانت على أبصارهم غشاوة من قبل، فانقشعت.. وحينئذ رأوه.. نعم لقد رأوه الآن فقط.. إنه يوسف أخوهم!!.. فمن ثم ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ فأجابهم دون تردد، لكى لا تنطفئ فى نفوسهم جذوة الفرحة التى فوجئوا بها وملأت قلوبهم: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ نعم أنا يوسف، وكان بنيامين يقف بجانبه، ثم قال وهو يشير إلى أخيه بنيامين: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾.

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ استفهام تقرير، ولذلك حقق بأن ودخول اللام عليه، قيل: عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به، وقيل: تبسم فعرفوه بثناياه، وقيل: رفع التاج عن رأسه، فرأوا علامة بقرنه، تشبه الشامة وكان لسارة ويعقوب مثلها. ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ من أبى وأمى، ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه.

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » : ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أى : أإنك لأنت يوسف الذى كنا نشك أنه أنت ، ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾.

يوسف يشكر ربه على جمع الشمل

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾

الـلـه مـنَّ علـى الـشـتـات فـجمَّع المـتـفَرقـين ٥٦
مَنْ كـانَ ذا صبـرٍ وتـقوى فـهْو بـين الـفائزيـن ٥٧
وجـزاؤه عـنـد الإلـه، يـكـونُ أجـرَ المحـسِنـين ٥٨

لقد تخـفف يوسف الصديق مـن العبء الذى كان يعـانى منه ،هو إخفاء حـقيقة شخصه عـن إخوته، ويعاملـهم على أنهم غـرباء عنه، لا صلة لـه بهم. .كان يشعـر كأنه يحمل ثقلاً أجهده. .فمن ثم ألقاه، وذلك بالـكشف لهم عن نفسه. إن يوسف الصديق حينما قال لإخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ لم يكن غرضه تأنـيبهم ،بيد أنه كان يريد أن يفتح لهم نـافذة ،يطلون منها على الحقيقة ،فرأى أن ذكر قـصته التى بينه وبينهم، أسرع إلى وعيهم ووجداناتهم، فمـن ثم يعرفونه دون أن يقدم نفسه لهم. وفعلا لقد أصاب يوسف. .وتم الـتعارف بسرعة ،وساد المكان نوع من الابـتهاج، وأجاب على تساؤلهم فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. نعم، لقد أكرمنا المولى عز وجل، فمن علينا إذ جمع شملنا بعد التفرق ، ومسح آلامنا ،وآسى جراحنا ،وكفكف دموعنـا. .ولا غرو فالتقوى والصبر ،هما خير ما يـتسلح بـهما الإنسـان ،حينـما تدهمـه المصائـب والنكبـات. .فجزاؤهـما عند الـله عظيم. .هو جزاء المحسنين، وتلك لعمر الله منزلة عالية.

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب فى « القصص القرآنى »: « وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هو تعقيب من يوسف على هذا الذى هو هبة من عطاء ربه. .إنـه جزاء من الله تعالى، لمن كان مـنه تقوى الله ومراقبتـه ،والاستقامة على طريق الحق ،والصبر علـى ما يبتلى الله به مـن مكاره ،فإنه من يتق الـله ويصبر على ما يبتليه به ،يكون من المحسنين ،وإن الله لا يضع أجر المحسنين».

قال ابن كثير فى تفسيره: «﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى بالسلامـة والكرامة ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أى يتقى الله، ويصبر على البليات ،أو على الطاعات، وعن المعاصى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر ».

إخوة يوسف يشعرون بالحزن أمام يوسف

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)﴾

إخـوانُ يوسـفَ مسَّهُم شـيءٌ من الحـزنِ المهـين ٥٩
لـكـنـهُم قـد بـادَروه بـلـهـجـةِ المـتـنَدمـين ٦٠
قـالـوا: لـقـد فُضِّلْتَ حـقاً مـن إلـهِ الـعـالمـين ٦١
هـا نحـنُ بـؤْنا بـالـنـدامـةِ، فـي عِداد الخاطِئـين ٦٢

بعـد موجة الفـرح التى غـمرت يوسف وإخـوته ، خيـم على المكان سحابـة من الصمت، نعم لقد تذكر أبناء يعقوب ، بشـاعة ما فعلوه مع أخيهم يوسف. . يوسف هذا الذى يرونه أمامـهم ، فى زى الملوك وهيبتـهم !!لقد كانوا أرادوا قتلـه من قبل !!! ولو شاء لقتلهم جميعا، ولو فعل لما كان ظالماً. حينئذ شعروا بالخزى والانكسار أمامه، لأنه هو فقط الذى يعرف ماذا صنـعوا. . لأنه هو الضحية. . فكونهم أخفوا الحـقيقة عن أبيهم ، أيخفونها عنه هو؟! ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ . نعم، لقد فضلك الله علينا ، لقد أجـرمنا فى حقك عامدين. . لا نـستطيع أن ننكـر ما فعلنا ، وقد أراد الله لك غير ما أردنا ، وأعطـاك من فضله ما أنت جدير به. . لقد تبـوأت أرفع وأعظم مكانة فى مصر. . أعرق دولة فى العالم. . لقد أخطأنا يا يوسف.

قال ابن كثير فى تفسيره: « ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ . يقولون: معترفين له بالفضل والأثرة عليهم، فى الخَلْق والخُلُق ، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضا ـ على قول من لم يجعلهم أنبياء ـ وأقروا له بأنهم أساؤا إليه وأخطأوا فى حقه».

قال الأستـاذ عبدالكريم الخـطيب فى «القصـص القرآنى»: « وهنـا يستشعـر إخوته الندم، على ما كان منهم ، وأنهم كانوا على طريق ضال، فى الكيد الذى كادوه له ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ . أى أن هذا الحب، وذاك الإيثـار الذى كان من أبيك لك دوننا، هو فضل من فضل الله عليك ، وإن فى غيرتنا وحسدنـا لما ألبسك الله من نعم ، هو ضلال منا ، وإن هذا الذى أنت فيه ، مـن مكان عال، ومن سلطان عظيم ، هو فضل اختصـك الله تعالى به. . ولكنا كـنا خاطئين إذ حسدناك ، على هـذا الفضل الذى يختص به الله من يشاء من عباده.

يوسف يغفر لإخوته

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾

لـكـنَّ يـوسـفَ لـم يـدعْ إخـوانَه مـتـحـيِّريـن ٦٣
بل قـال فوراً: قـد عفـوت فلا تـكونـوا آسفـين ٦٤
إنـي عـلـى هـذا قديـرٌ، لا أحـبُّ الـنـاقمين ! ٦٥
الـلهُ يـغـفـرُ كل ذنـبٍ ، مـن ذنـوبِ التَّائبـين ٦٦
ذاكُم إلـهُ العـرشِ ، رحـمَانٌ وخـيرُ الـراحـمين ٦٧

إن من عادة الكرام ، ذوى الهـمم العالية ، والعقول الواعية، ألا يـتركوا أحداً يقف أمامهم، موقف ذلة وانكسار ، ولا سيما إذا كان من ذوى القرابة . . ويوسف الصديق، من أعلى الرجال همة . . ومن أرجحهم عقلاً . . وهو أيضاً من أكرم الرجال .

هكـذا قال عنه سـيد الخلق مـحمد ﷺ، حـيـنما قـال له وفد بنـى تميم: نحـن أكرم العرب . فقال عليه الـصلاة والسلام: « بل أكرم منكم يوسف نبى الله، ابن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق نبى الله ، ابن إبراهيم خليل الله » .

فلما رأى يوسف الصديق، إخوته فى موقف الخزى، والذل والانكسار، وهم يعتذرون إليه مما صنـعوا . . عز عليه أن يـرى إخوته فى هذا الموقـف، إنهم فى حالة اعـتذارهم ، يتضاءلون أمامه ويتصاغرون . . فمن ثم هتف قائلا: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ . لا لوم ولا تأنيب لكم منى . . إننى لا أحمل فى قلـبى ضغينة لأحد منكم . ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ الـلَّهُ لَكُمْ﴾ يتجاوز عنكم، ذلك لأننى متسامح معكم، لا أريد الانتقام منكم ، وقد تنازلت عن حقى راضياً ؛ إذن فإن الله عز وجل سوف يغفر لكم . . لأنه غفور رحيم . . ذلك لأنكم نادمون على ما فعلتم ، فهو رحيم بعباده، لاسيما التائبون النادمون منهم .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتاب « أنبياء الله»: لا مؤاخذة، ولا لوم ، انتهى الأمر من نفسى، وذابت جذوره، لم يقل لهم: إننى أسامحكم أو أغفر لكم، إنما دعا الله أن يغفر لهم، وهذا يتضمن أنه عفا عنهم ، وتجاوز عفوه . . ومضى بـعد ذلك خطوات . . دعا الله أن يغفر لهم . . وهو نبى، ودعوته مستجابة، وذلك تسامح ، نراه آية الآيات فى التسامح .

يوسف يرسل قميصه لأبيه مع إخوته

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)﴾

هـاكُم قمـيـصِى فاذهـبوا لـلآلِ فـوراً مسْرِعـين ٦٨
ولتـطرحُوه علـى أبى، يصـبحْ بصـيراً عن يـقين ٦٩
هـاتوا جـميـعَ الأهـلِ ، ولتـأتـوا إليـنَا قادمـين ٧٠
حتـى يعـودَ الشمـلُ حقـاً، بعد عـشراتِ الـسنين ٧١

أراد يوسف الصديق ، أن ينهى هذا الحوار الثقيل ، بينه وبين إخوته . . وينتقل من هذا الموقف إلى موقف آخر ، بأسلوب جديد، بحيث يخفف عن إخوته ، وينسيهم مرارة هذا الموقف فقال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ خذوا هذا القميص . . إنه قميصى الذى يعرفه أبى الذى ورثة عن جدنا الاكبر إبراهيم خليل الله . . فألقوه على وجه أبى . . ولسوف يشم فيه أبى رائحتى، ومن ثم فسوف يعود إليه بصره بإذن الله . ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هاتوا جميع آل يعقوب ، لا تتركوا أحداً هنالك، اتركوا الصحراء الجرداء القاحلة، وتعالوا إلى مصر أرض الخير والنماء . . تعالوا جميعاً، لكى تلتئم الجراح، ونجتمع بعد فراق طال وطال ، مع المرارة والآلام والأحزان ، لعشرات السنين . . ما أحسن جمع الشمل بعد الفراق .

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى »: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يكشف يوسف عما لهذا القميص من أثر فى شفاء أبيه ، ورد بصره إليه بعد أن ذهب به الحزن ، إن يوسف يقول على سبيل القطع والجزم ﴿يَأْتِ بَصِيراً﴾ فما هذا القميص؟! ، وما شأنه ؟ ! أهو معجزة نبى أم ماذا ؟! تكثر أقوال المفسرين حول هذا القميص . . حتى لتنسبه بعض الأقوال ، إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأنه كان القميص الذى يقال: إن جبريل جاء به من الجنة ، وألبسه إبراهيم حين ألقى فى النار ، فلم تصبه بسوء، ثم جعل إبراهيم هذا القميص ميراثاً فى ذريته، أعطاه إسحاق، ثم أعطاه يعقوب ، ثم ها هو ذا يوسف يدفع به إلى إخوته، ليلقوه على وجه أبيه فيرتد بصيراً ، ويأتى بتلك المعجزة الخارقة . وقد كان يمكن أن يصبح هذا، لو كان له مستند من كتاب الله وسنة رسوله، وأما وليس فى القرآن الكريم ، ولا فى حديث رسول الله شاهد لهذا ، فإنه من الخير أن يتخفف العقل من هذه الغيبيات القائمة على الرجم بالغيب ، وأن يأخذ الأمور على ظاهرها .